رواية التّأسيس في اليمن
بين "فتاة قاروت" و"سعيد"

الأستاذ: عبد القادر رحيم
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر بسكرة

تمهيـــــد:

يصطدم الباحث في مجال الرواية العربية بكثرة الآراء واختلافها حول أوّل رواية عربية من حيث النشأة، فأغلب النقاد في المشرق العربي، وبخاصة في مصر، يجمعون على ريادة "زينب" لمحمد حسين هيكل الصادرة عام 1919، إذ يرى بطرس خلاق أنّها "باكورة الرواية العربية الفنية"[1]، وهي في رأي آخر نتاج "احتكاكه المباشر بآداب الغرب"[2]، غير أنّ لغيره رأيًا آخر يجزم من خلاله بريادة رواية "الهيام في جنان الشام" لسليم البستاني، التي يعود تاريخ نشرها إلى عام 1870، أي أنّها تسبق ظهور "زينب" بنحو أربعين عامًا ونيفا.

ولربما يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، إذ يَعُدُّ "غابة الحق" لفرانسيس فــتح الله مراش، الصادرة عام 1865، أو"حكاية العشاق في الحب والاشتياق" للأميــر مصـــطفى محمد بن إبراهيم الصادرة عام 1944 باكورة الرواية العربية.

ولعلّ عدوى الريادة قد انتقلت من الإقليمية إلى القُطرية في العالم العربي، فهــذا اليمن السعيد يختلف فيه النقاد والباحثون حول أوّل رواية كُتِبَت في تاريخه، فبين منتصر لرواية "فتاة قاروت" لأحمد عبد الله السقاف ومؤيد لرواية "سعيد" لمحمد علي لقمان" تغيب الحقيقة النقدية في قُطر ظلّ ردحًا من الزمن "بعيدًا عن دائرة الاهتمام".[3]

ويبدو أنّ القطع بريادة إحدى الروايتين منذ البداية هــو أمــر ســابق لأوانــه، فالموضوع يحتاج إلى كثير من التثبت والتروي، لهــذا تنبغــي الإشـــارة – أوّلا – إلـــى الظروف التي أحاطت بكتابة الروايتين، وهذا من خلال التذكير بسيرة الكاتبين كلٍّ علـــى حدة.

أحمد السقاف:

هو الكاتب والصحفي والمصلح اليمني أحمد بن عبد الله بن محسن بن علوي السقاف، ولد بالشحر عام 1882[4] في أسرة اشتهرت بالدعوة والعلم، غير أنّ ظروفًا ما دعته إلى الهجرة وهو في ميعة الشباب إلى أندونيسيا، وذلك عام 1908. حيث التقى أخاه الأكبر الذي سبقه إليها.

لم يقاوم السقاف سحر الأرخبيل السندي، فقرر الاستقرار بأندونيسيا "التي استوطنتها الجالية اليمنية والعربية، ليسهم في أثناء ذلك في النهضة الثقافية ونشر التعليم بين المهاجرين العرب في شرق آسيا"[5] غير مبالٍ بما كان يلقاه من ضيم وحجْرٍ من قبل المستعمر الهولندي، وأذنابه من السكان المحليين، فراح ينشر ما تشرّبه من ثقافة وعلم في حضر موت باليمن، عن طريق تأسيس المدارس ودور العلم "كالمدرسة الخيرية في سوار بابا عام 1911، والمدرسة الإسلامية في صولو، كما تولى زمام مدرسة أخرى في جاكارتا[6]، عاصمة أندونيسيا.

ولم يكن السقاف معلما فحسب، بل كان إعلاميا له فضل السبق في تأسيس بعض المجلات والدوريات، حيث ينسب إليه تأسيس مجلة (الرابطة العلوية) عام 1927، التي اهتمت بالقضايا الدينية والأدبية والتاريخية، ولا سيما ما كان منها متصلا باليمن بعامة، وبمدن حضرموت بخاصة، كما كان من أوائل الذين كتبوا في صحيفة (الإصلاح) التي صدرت في سنغفورة عام 1916.

فاجأت المنيّة السقاف وهو عائد إلى اليمن على ظهر إحدى البواخر عام 1950[7]، مخلّفًا وراءه إرثًا من النصوص الإبداعية، أهمها ديوان شعر صدر بجدة في المملكة العربية السعودية، وروايتان صدرتا بأندونيسيا هما على التوالي: "فتاة قاروت" عام 1927، و"الصبر والثبات" عام 1929. بالإضافة إلى بعض الكتب التاريخية، ككتاب "تاريخ الإسلام بيانتن" و"تاريخ الإسلام بأندونيسيا".[8]

رواية "فتاة قاروت":

تجسّد رواية "فتاة قاروت" قصة حب رومانسية بين شاب عربي من حضر موت يدعى عبد الله، وفتاة سندية من قاروت تدعى (نيغ)، يلمحها أوّل الأمر في حديقة عامة مع والديها، فيكلف بها من النظرة الأولى، وتبادله هي الشعور ذاته، من غير أن يتكلّما أو يتماسّا.

ويمضي الكاتب في تصوير هذا الحب العفيف، الذي بدأ يتطور شيئًا فشيئًا حتى أصبح عشقا وألمًا يعيشه الحبيبان في صمت، ويزداد هذا الألم بعدما يبلغ سمع عبد الله أنّ فتًى هولنديا ثريا يدعى (فان ريدك) جاء يخطب ود (نيغ) مستعينًا بترحيب والديها، وبخاصة أمها (مينة).

يسارع عبد الله إلى خطبة (نيغ) متخذًا صديقتها (رصيدة)عونًا له في ذلك، غير أنّه يتفاجأ بمعارضة أمها من جهة، وأخيه عبد القادر من جهة أخرى، فينكسر الحب في داخله نتيجة المكائد والدسائس التي صرمت حبل الود بينهما، لذلك يقرر مغادرة "قاروت" إلى مقاطعة أخرى حيث يقطن أبناء عمومته، فتُعرض عليه إحدى بنات عمه فيتزوجها على مضض، ولكن القلب الذي سكنه حب (نيغ) لم يطاوعه، إذ يقرر العودة من جديد إلى قاروت، ليكتشف في هذه المرة، أن اسم حبيبته الحقيقي (إيفة) وهو اسم عربي مخفف – على عادة السنديين – من شريفة، فيزداد حبه لها بعدما أيقن أن سبب رفض أخيه عبد القادر لم يعد له مايبرّره (وقد كان السبب الذي منع عبد القادر من الموافقة هو كون (نيغ) سندية وليست عربية، والزواج من السنديات في تلك الحقبة كان مذمّة).

ولا تتوقف الأحداث عند هذا الحد، بل يستمر السارد في تيسير السبل للجمع بين الحبيبين، إذ يكتشف عبد الله من جديد أن (نيغ) ما هي إلا ابنة عمه عمر، الذي كان قد تزوج (مينة) أم نيغ، لمدة ثلاثة أيام ثم توفي عنها وهي حّبلى.

وهكذا يختم السقاف روايته بخاتمة سعيدة على الطريقة السندية، حيث يتزوج عبد الله (نيغ)، وترضى الأسرتان بالأمر الواقع، ويصمت الوُشاة إلى الأبد.

الشخصيات:

قسّم السقاف شخصيات روايته إلى صنفين؛ صنف خيّر لا يسعى في النص إلاّ للحب والخير وهم:

– عبد الله: الفتى الحضرمي العاشق.

– نيغ: محبوبة عبد الله، واسمها الحقيقي إيفة (مخفف من الاسم العربي شريفة).

– رصيدة: صديقة (نيغ)، والوسيط الذي كان ينقل الرسائل بينها وبين عبد الله. بالإضافة إلى الخادم (سترون).

وصنف يمثل نزعة الشر في الإنسان وهم:

– مينة: أم (نيغ) والمعارض الرئيس في القصة.

– رسنا: زوج أم (نيغ). والراغب الأكبر في زواج (نيغ) بالثري الهولندي طمعا في المال.

– فان ريدك: ثري هولندي من أبناء المعمرين المحتلين، يمقت العرب، غير أنّه أعجب بنيغ ظنا منه أنها سندية.

– الحاج مخطئ: رجل دين مزيف.

– **محمد علي لقمان:**

هو الأديب والمصلح والصحافي ورائد حركة التنوير في اليمن محمد علي لقمان ولد في السادس من شهر نوفمبر عام 1898 بعدن،وبها نشأ وتلقى تعليمه الأول.

شغل لقمان في بداية حياته مناصب إدارية عدة، منها إدارته لمجموعة من المدارس في عدن، في الفترة الممتدة بين عامي 1924 و 1928، ثم انتقل إلى الصومال ليشغل منصب وكيل لشركة "ألبس"[9]، وذلك ابتداءً من عام 1930 إلى غاية عام 1934.

لم يطب له المكوث في الصومال، فقرّر مغادرته إلى الهند، وذلك طلبا للعلم، حيث حطّ الرحال بومباي، فتحصل في جامعتها على شهادة الكفاءة في المحاماة عام 1938، ليكون أول محام عربي في محاكم عدن والصومال.

وقد كان لقمان سبّاقا في كل شيء، فهو أول من تحصل على شهادة الثانوية العامة في عدن، وأول محام في تاريخ اليمن، وأول مؤسس لجريدة يومية يمنية سماها (فتاة الجزيرة) وذلك عام 1940.

لكل ذلك شهد التاريخ أنّ الرجل كان مصلحا ومعلما، حريصا على تنوير الناشئة من أبناء اليمن وتعليمهم، وإن تطلب الأمر إرسالهم إلى خارج حدود الوطن، ومما يثبت ذلك رسالته إلى الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، التي يقول فيها:«كنتُ ذكرتُ لكم رغبتي في إرسال بعض أولادي إلى الخارج ليتعلّموا، وقد كتبت أخيرا خطابا إلى الملك غازي(عاهل العراق) ورجوته أن يسمح لنا في عدن بأن نبعث عشرة تلاميذ إلى العراق ليتعلموا أسوة بإخوانهم»[10].

كان لقمان –كما تقول جنان محمد فارع–: يمتلك مشروعا تنويريا وحضاريا متكاملا من خلال أعماله المنشورة التي كتبها على امتداد حياته... ، كما كان يمتلك برنامجا نهضويا يشتمل على قاعدتين أساستين هما: الإرث الفكري للأمة العربية الإسلامية، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية. [11]

ظل محمد علي لقمان مدافعا عن العلم والحق حتى وافاه الأجــل«فـــي الرابـــع والعشرين من شهر مارس/آذار عام 1966 في الأرض المقدسة، ودفن في مقبرة المعـــلا في مكة المكرمة».[12]

خلّف العالم الجليل وراءه إرثا علميا زاخرا من كُتب وروايات ومقالات، نـــذكر منها: كتاب "بماذا تقدم الغربيون"، وكتاب "قصة النور اليمنية"، ورواية "سعيد" (موضـــوع الدراسة) الصادرة عام 1939، ورواية "كما لا ديفي"، إضافة إلى مقالاته التي كان ينشرها في صحيفتي "فتاة الجزيرة"، و"إيدن كرونيكل".

روايـــــة"سعيـــــد":

انطلاقا من فكرة "لكل بلد ظروفه"[13] الخاصة به، والمحيطة بأدبه، أسس محمد علي لقمان لروايته "سعيد" التي تحكي قصة شاب يمني يدعى سعيد يمثّل الخير المطلق في بيئة عدنية تعاني ظلم المستعمر الإنجليزي من جهة، وجهل قومه من جهة أخرى.

وقد كان سعيد:«محبا للعلم مغرما بالأدب، كثير البحث والتنقيب عـــن الحكمـــة، يشعر بحاجة أبناء وطنه إلى العلوم والمعارف...ولطالما خطب في الجمهور يحثهم علـــى العلم والأخلاق، والبذل في سبيل البؤساء، والأخذ بأيدي العاثرين، ولكن اندفاعه في النقد المر على بعض المعتقدات، وتسفيهه لآراء بعض الناس خلق له أعداء يناوئونه، فأوغروا عليه صدر والده»[14].

ولم يجد سعيد من معين في معاركه الإصلاحية إلا صديقه عثمان الـــذي يبـــدو وكأنه« مكملّ لشخصية صاحبه»[15] بطل الرواية، فكلاهما يسعى إلى الإصلاح، وإخراج الناس من ظلمات الجهل والخرافات. غير أنهما يصطدمان بـــ(سالم) الذي يمثـــل الشـــرّ المطلق في هذه الرواية. وقد أجرى صاحب الرواية على لسانه النص التالي:«أنا الـــذي سعيت في إبعاد سعيد عن أبيه، وسأسعى في القضاء على حسن، أنا الذي يجب أن أحظى بعائشة من دون الناس أجمعين، وأنا أرث هذا الشيخ المغفل، آه إن هذا قد يبـــدو غريبـــا منافيا للأخلاق التي يتغنى بها سعيد المغرور وعائشة أيضا، وهي التي لو عرفت دخائـــل نفسي لصبت عليّ اللّعنات ولكنها لن تعرف أبدا. [16]

وتلخّص هذه الرواية قصة الصراع الأبدي بين الخير والشرّ، ولكنها تنتصر في الأخير للخير، الذي يجسده سعيد، وزهراء، وعثمان، وعائشة.

الشخصيـــــــات:

تجاذبت نص هذه الرواية نزعتان: خيّرة، وشريرة، فأما الخيّرة فيمثلها كلٌّ من:

- سعيد: بطل الرواية، ويمثل الخير المطلق.
- عثمان: صديق سعيد ومساعده في عمله الإصلاحي.
- زهراء: فتاة خيّرة تحب سعيدا ويحبها.

وأما الشريرة فيمثلها: سالم وحده بحكم أنه الشرّ المطلق في هذه الرواية.

حـــــق الريـــــادة:

يذهب أغلب النقاد في اليمن، وبخاصة هشام علي وآمنة يوسف وإبـــراهيم أبـــو طالب إلى أن رواية سعيد(1939) هي أول رواية في تاريخ اليمن الحديث، وأن صاحبها محمد علي لقمان هو بحق عرّاب الرواية اليمنة، وحجتهم في ذلك أنّ "فتاة قاروت" ليست يمنية لأنّها كُتبت في المجهر، وبالتالي لا يمكن عدّها بأي شكل من الأشكال أدبا يمنيا.

غير أنّ طائفة من النُّقاد اليمنيين ترى خلاف ذلك، إذ تؤكد على ضرورة التأريخ لظهور الرواية اليمنية ابتداء من عام 1927، أي مع ظهور رواية "فتاة قـــاروت" لأحمـــد عبد الله السقاف، ومن أشهر هؤلاء النقاد عبد الحكيم صالح وزيد الفقيه.

وترى هذه الطائفة أن حجة دعاة المحلية واهية، وأن لا سبب ينزع عـــن "فتـــاة قاروت" يمنيتها، فهي يمنية بمؤلفها وشخوصها (عبد الله، عبد القادر نيغ(إيفة)) ورؤيتهـــا الحضرمية... وما الضير في كونها كُتبت في المهجر، فلو كان الأمر كذلك لما عـــدّ أدب إليا أبي ماضي وجبران خليل جبران- وغيرهما من كتّاب المهجر الأمريكي- أدبا عربيا أصلا.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول بصدق: إنّه آن الأوان لأن يَسترد السقاف حقه في الريادة، وأن تُعد "فتاة قاروت" فاتحة لعهد الرواية اليمنية.

الهـــــــــوامش:

[1]بطرس خلاق وآخرون: الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1981، ص26.
[2]علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1979، ص04.
[3]علي الراعي: الرواية في الوطن العربي، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1991، ص17.
[4] ينظر: عبد الحكيم محمد باقيس: فتاة قاروت والريادة الروائية المهمشة، نادي القصة المنية (المقة)، ينظر الموقع التالي: www.elmaqah.net
[5] عبد الحكيم محمد صالح باقيس: السقاف ولقمان والريادة الروائية، صحيفة الجمهورية الالكترونية، العدد 14937، الأحد 08 يونيو حزيران 2008.
[6] المرجع نفسه.
[7] عبد الحكيم محمد صالح باقيس: فتاة قاروت والريادة الروائية المهمشة، نادي القصة اليمنية (المقة)، ينظر الموقع التالي: www.elmaqah.net
[8] المرجع نفسه.
[9] حنان محمد فارغ، محمد علي لقمان.. رجل الفكر والتنوير في اليمن، اليمن الجديد، دورية إلكترونية تصدر عن المؤسسة الاقتصادية اليمينة.
[10] المرجع نفسه.
[11] المرجع نفسه.
[12] شهاب غانم، محمد علي لقمان، رائد الحركة التنويرية في اليمن، جريدة 14 أكتوبر الإلكترونية، عدن، الجمهورية اليمنية، العدد رقم 14791، الموافق لـــ 16 أفريل 2010.
.
[13] صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2003، ص47.
[14] صبري مسلم، رواية سعيد وثقافة التغيير، صحيفة 26 سبتمبر الإلكترونية، العدد 1300، الأربعاء 29 سبتمبر 2010، ص7.
[15] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[16] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.